

بين فن التاريخ وفن الحرب

٨ - خالد بن الوليد

في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وماي يذو
شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأتنا أموت على فراشي
كما يموت البعير ، فلا نأمن أعين الجبناء ،
خالد بن الوليد »

والغريب في ذلك أن الفرق كانت تعيش مستقلة بعضها عن
بعض ، وكانت تتقاتل بخلاف فرق القبائل الأخرى . ولعل الداعي
إلى ذلك أنها كانت حسيمة لا يمكن لرئيس واحد السيطرة عليها ،
وأنها في بلاد جعلتها بمأمن من غزوات القبائل الأخرى فلم ي
الفرق والبطون حاجة إلى الوحدة

ويظهر أن مالك بن نويرة استطاع أن يستميل سجاحاً إلى
حانبه لقرابته منه ، وأراد أن يستغلها لمصلحته فيضرب بها الفرق
المخالفة له ويرأس بني تميم بالقوة ، أما هي فكانت تريد أن تستفيد
منه للهجوم على المدينة . ومال وكيع بن مالك رئيس بني حنظلة
إلى جانب . وهكذا مال شعب بني مالك إلى جانب سجاح

وكانت الشجاعة قبل ذلك شديدة بين رؤساء بني تميم كما نعلم .
ولما ورد خبر وفاة الرسول عليهم أرسل بعضهم الصدقات إلى
المدينة ، وانتظر بعضهم ما يصنع البعض الآخر . ويروي أن
قيس بن عاصم رئيس مقاعس والبطون قل « وأولنا من ابن
المكلاية - يريد به الزرقان - والله لقد مررتني فما أدرى ما أصنع ،
لئن أنا تأممت أبا بكر وأتيت بالصدقة لينجرنسا في بني سعد
فيؤدوني فيهم ، ولئن نحرمتها في بني سعد ليأتين بها أبا بكر فيؤدوني
عنده » فزعم قيس على توزيع الصدقات على مقاعس والبطون
ففعول ، وعزم الزرقان على الوفاء بإرسال الصدقات إلى المدينة .

(*) وهو بحث في قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كتابه المناهل
« الرسالة »

وكانت النتيجة أن نشب القتال بين عوف والأبناء من جهة
والبطون من جهة أخرى ، وبين الرباب من جهة ومقاعس من
جهة أخرى . وبين خصم وحنظلة وبين بهدي وبربوع .

ولما وصلت سجاح إلى الحزن أرض بني ربوع وانفتت مع مالك
ابن نويرة والتحق بها وكيع بن مالك شرع مالك بنفذ خطته
ليرأس بني تميم ، فبدأ بقتال الرباب وعوف والأبناء ، فلم يظفر بهم
بل دارت الدائرة عليه وعلى سجاح ، فوقع وكيع أسيراً بيد الرباب .
وأرادت سجاح أن تجرب حظها مع بهدي وخصم من شعب
بني عمر فكانت نصيبها الخيبة أيضاً . فلما لم تظفر بطائل تركت
مالكاً وانسحبت رجلاً من بلاد بني تميم وسارت إلى الهامة

هذا هو الموقف حين كان خالد يحول ويصول في بلاد بني أسد
ولم يكن يحمله ، لذلك لم يكذب ينتهي من أمر بني أسد حتى تراه قد
انتبهز الفرسة وأمر جيشه بالمسير إلى أرض بني تميم دون أن ينتظر
أمراً من الخليفة ، وهكذا رآه يستعمل إبداعه ويسير جيشه نحو البطاح
برغم مخالفة الأنصار له مدعين أن عهد الخليفة اليهم أن يقيموا
بعد فراعهم من براحة إلى أن يكتب اليهم . إلا أن خالد أقدم
نحو البطاح قائلاً لهم إنه هو الأمير واليه تنتهي الأخبار وإن لم
يأتهم أمر من الخليفة ، فانه لا يريد أن يضيع الفرسة مادام مالك بن
نويرة بجياله . وشعب بني تميم نائرة منه . لذلك لم يتردد خالد في
الذهاب إليه من دون الأنصار

والواقع أن مالك بن نويرة بقي وحيداً بين بني تميم ، لأن
صفوان بن صفوان كان قد أرسل الصدقات إلى المدينة وكذلك
الزرقان ، أما قيس بن عاصم فكان عليه ، وكذلك وكيع بن مالك
لما سمع بانتصارات خالد أرسل صدقات بني حنظلة إليه . فبقى
مالك حارماً ماذا يعمل ، وكان بالبطاح مع رجاله من بني ربوع ،
والبطاح أرض دون الحزن ، وهي ذات مراتع خصبة وفيها مياه
كثيرة ، فالقصية والبريدة من مواقعها

وندم الأنصار على تخلفهم لأنهم خشوا أن نصيب المسلمين
مصيبة فيلأموا عليها ، فأوفدوا رسولاً إلى خالد يطلبون منه الإقامة
إلى أن يلحقوا به ، فأقام خالد حتى لحقوا به فسار إلى البطاح .
والروايات غير متفقة في أمر مالك بن نويرة . ومن الروايات ما
ترجم أن مالكاً قاتل المسلمين برجاله من بني ربوع فقتل في القتال .

منهم السلاح . أضف الى ذلك قتاله في ظفر ، وانتظاره محي . رؤساء بني عامر

ويدعى المؤرخون أن مالكاً بن نويرة قتل خطأ في ليلة شديدة البرد . وعلى ما في كتاب الطبرى رواية عن سيف ابن عمر أن الأسرى من بني يربوع حبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء . والليالي الشديدة البرد في البادية تقع في أشد شهور الشتاء برذاً . وها كانون الأول «ديسمبر» وكانون الثاني «يناير» . إذن وقع القتل بين أواخر كانون الأول وأوائل كانون الثاني ، فتكون حادثة البعوضة (*) وقعت بين شهرى شوال وذى القعدة في السنة الحادية عشرة الهجرية

بقيناً أن خالداً قضى مدة غير قصيرة في البطاح ، وقضى وقتاً في ذهابه الى المدينة مليئاً دعوة الخليفة . ولما عاد منها لم يحرك جيشه نحو اليمامة بمجرد وصوله الى المعسكر ، بل انتظر مدة لورود النجدة التي أمد بها الخليفة جيش المسلمين . فيظهر من كل ذلك أن الحركة من البطاح نحو اليمامة وقعت في أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية - أى في ربيع سنة ٦٣٣ ميلادية ، في شهر آذار أو شهر نيسان «مايو»

ومن رواية رواها أبو هريرة نستدل على أن سلمة بن عمير الحنفي كان يشجع بني حنيفة على المقاومة بعد معركة عقرباء فينادى قائلاً : « يا بني حنيفة قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، قال الحصن حصين وقد حضر الشتاء » . ومعنى ذلك أن الحركات في اليمامة جرت في صيف الثالثة عشرة الهجرية - أى بدأت حوالى شهر مايو لسنة ٦٣٣ ميلادية

منطقة الحركات

اليمامة مؤلفة من مقاطعتي العارض والخرج الحاليين ، ومقاطعة الخرج من أخصب مقاطعات نجد ، فالأمر مبذول فيها وهو على عمق بضعة مترات تحت الأرض . ولما كانت أرضاً منخفضة تنصرف اليها مياه الأمطار من الجبال والهضاب التي تحيط بها ، ومدينة اليمامة - العاصمة القديمة - واقعة فيها

ويدعى كثير من الجغرافيين بأن أرض اليمامة القديمة هي مقاطعة الخرج الحالية . وهذه المقاطعة واقعة في جنوب شرق

* البعوضة اسم الحبل الذي قتل فيه مالك بن نويرة

ومنها ما يزعم أنه لما تأكد من الخيبة فرق رجاله وأمرهم بالابا يقاتلوا المسلمين ورجع الى منزله ، ولما قدم خالد البطاح بث أربع سرايا الى جهات مختلفة ، فرجعت السرية التي كان يقودها أبو قتادة الأنصاري بمالك والبعوض من رجاله

ومن الروايات ما تزعم أن مالكاً حارب السرايا التي أوفدها خالد فقتل ، ومنها ما تزعم أنه وقع أسيراً في القتال فأمر خالد بضرب رقبته مع الأسرى الآخرين ، والبعوض الآخر من الروايات تذكر أن خالداً أراد قتل الأسرى بما فيهم مالك ، إلا أن أبا قتادة شهد أنهم أذنوا وقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد أن يحبسوا ، وكانت الليلة شديدة البرد ، فأمر خالد منادياً فنادى أن أدفئوا أسراكم ، وكانت كلمة الدفء في لغة كنانة تعنى القتل ، فقتلهم الخفراء وقتل ضرار بن الأزور مالكاً

وكان قتل مالك على هذه الصورة ، وتزوج خالد بامرأته ليل بعد قتله مدة قصيرة . وهذا مما جعل عمر بنقم على خالد فطلب من أبي بكر أن يعاقبه على فعلته هذه ، فاضطر الخليفة الى استقدام خالد الى المدينة وطلب الايضاحات منه ، فلما اقتنع أن خالداً لم يقصد قتل مالك أعاده الى جيش المسلمين وكلفه بالمسير الى اليمامة ليقا تل مسيلة الكذاب

الحركات في اليمامة

من الصعب التثبت من المدة التي قضاها خالد بن الوليد في البطاح حتى نعلم الوقت الذي تقدم بجيشه نحو اليمامة لمقاتلة بني حنيفة . فيكاد أكثر المؤرخين من العرب يتفق على أن القتال في اليمامة وقع في أوائل السنة الثانية عشرة الهجرية . أما أبو بشر الدولابي واليعقوبي فيزعمان أن القتال وقع في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة

فبدأ السنة الثانية عشرة الهجرية يوافق شهر آذار «إبريل» سنة ٦٣٣ ميلادية . والذي نعلمه أن خالداً توجه من ذى القعدة نحو بزاخة في منتصف شهر ايلول «سبتمبر» أو شهر تشرين الأول «أكتوبر»

وقضى خالد في حركته نحو بزاخة أكثر من عشرين يوماً يترقب أخبار طي . وبعد استعاره على جيش طلحة بن خويلد مكث في بني أسد مدة غير قصيرة ليقبل إسلام المرتدين ويجمع

الجنوب ومن الجنوب الى الشمال . فيستمد الوادى ماءه منها فيجربى من الغرب الى الشرق . وفي جوار عقرباء ، حيث نشبت المعركة الفاصلة بين جيش خالد وجيش مسيلة ، يغير الوادى اتجاهه فيجربى من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى في واد يضيق في بعض المحلات ويمرض في البعض الآخر ، وهو شديد الوعورة في الشمال وسهل المجربى في الجنوب . وعلى حافتي الوادى شيدت القرى والمدائن ، حيث استقيمت المياه المنصرفة اليه ، وزرعت البساتين حولها . والوادى في هذا القسم يتغذى بعدة شعاب ينصب أكثرها فيه من السفوح الغربية

وفي محل انكسار سلسلة طويق تصب فيه عدة وديان بحيث أنها تغير اتجاهه في جوار السليمة واليمامة ، فيتوجه نحو الشرق فالجنوب الشرق الى أن ينتهي في زمال الربع الخالي وكان من وصايا أبي بكر الى خالد بن الوليد أن يأخذ الحطة عند الهجوم على أهل اليمامة . وكان الخليفة محققاً في هذه الوصية ، لأن أهل اليمامة سكان القرى البنية في الوديان الضيقة ، وعلى سفوح الجبال الوعرة ، بنوا دورهم بالحجارة ، وسوروا قراهم بالجدران ، وأنشأوا الحدائق بالقرب من قراهم ، وزرعوا فيها النخيل والأشجار وأحاطوها بالحجارة لينعموا المارة من دخولها أو ليعتصموا بها عند الحاجة

فأهل اليمامة إذن لا يشبهون أهل البادية في القتال ، فهم معتصمون بجبالهم النيعية ، ومعتزون بقراهم النيعية ، وحدائقهم المستحكمة . ولا تزال آثار هذه القرى ظاهرة في تلك الأنحاء . وهذه القرى كثيرة ومتشرة على طوار وادى حنيفة ، وفي مقاطعة الخرج ، وفي الوديان والمنخفضات والواحات

له الراسمى

« يتبع »

بظهر قريباً

بيرون

الانسان بين لذة الجسم وألم الروح
الشاعر بين تقديس الحرية وعبادة الطبيعة

بقلم نظمي هليل

بكالوريوس في الأدب الانجليزي

العارض ، ويحدها من الشرق وادى حنيفة ، وعلى إحدى شعبه اليمنى بنيت مدينة اليمامة . ولا تزال مقاطعة الخرج من أكثر المقاطعات النجدية نفوساً ، وفيها مراعي خصبة وبساتين تحمل كثيرة ويحد المنطقة التي جرت فيها الحركات من الشرق هضبة العرمة ، وهي الهضبة المرتفعة المشرقة على الدهناء ، ومن الغرب الأنفذة الموازية لسلسلة طويق ، ومن الشمال مقاطعة القصيم . والمنطقة جبلية تمتد من أوعر مناطق نجد من حيث الوديان والمضايق والروابي والآكام

وتمتد جبال طويق في وسط المنطقة من الشمال الى الجنوب وهي حجرية كلسية جرداء متموجة ، تتألف من سلسلتين متوازيتين ، وسفوحها الغربية منحدره ، أما سفوحها الشرقية فقليلة الانحدار . ويبلغ ارتفاعها زهاء ستمائة قدم على الهضبة الغربية . وتمتد الجبال من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، وتنكسر في الوسط وتغير اتجاهها الى الجنوب فالجنوب الغربى فتنتهي الى وادى الدواسر . وفي المحل الذى تنكسر فيه تجرى الوديان من الشرق الى الغرب وتصب في وادى حنيفة . وهذه الوديان ضيقة وعمرة في محل الانكسار حيث ترتفع سفوحها الشمالية والجنوبية بانحدار شديد

وتنصرف مياه الأمطار التي تهطل على الجبال الى الشرق والغرب في الوديان والشعب ؛ فنها ما يصب في وادى حنيفة ، ومنها ما يكون وادى الخفس وشعيب العنشى حيث تنصرف مياهها الى الدهناء . ومنها ما يصب في مقاطعة الوشم ويسقى منخفضاتها ويكون واحاتها الخصبة . والشعيب الذى يكون وادى الخفس ينبع من جنوبى نادق ويمجربى نحو الجنوب الى الحرمل ومنها يتوجه شرقاً . وهذا الشعيب ووادى حنيفة يقسمان الجبال الى سلسلتين :

الغربية منهما مرتفعة ووعرة وهي طويق ، أما الشرقية فنخفضة ولطيفة الانحدار ، وهي روابى المارض في الشمال وجبل صلبوخ في الوسط والجبل في الجنوب . وأما وادى حنيفة (وهو أعظم واد في هذه المنطقة) فقد سميت القبائل الساكنة على جانبيه باسمه . وصلوه في الأرض الفاصلة بين المارض من جهة ، والمحمل والسندبر من جهة أخرى . ويبدأ الوادى في نية اليمامة في شرق خشم الحيسية ، ويتكون من عدة شعب يجربى من الشمال الى